المجلة الجزائرية للدراسات الإنسانية
رت م د إ: EISSN: 8506-2716
رت م د: ISSN : 2716-7984
المجلد 06 / العـدد: 01 (السنة2024)، ص ص 29- 44

المناظرات والمناقشات العلميّة من خلال كتب رحلات المغاربة في القرن التّاسع عشر ميلادي

Scientific debates and discussions through Moroccan travel books in the 19

د. ليلى دغفوس
المكتبة المركزية جامعة الزيتونة leila.dgfs@gmail.com

Doi: 10.53283/2157-006-001-002

تاريخ الاستلام: 2024/01/12 تاريخ القبول: 2024/01/23 تاريخ النشر: 2024/06/30

ملخص: تنوّعت مظاهر النشاط الثقافي وتعدّدت أوجهه في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرن التاسع عشر ميلادي، ولم تعُدْ تقتصر على ما اسودّ من الصحائف نسخاً وتأليفاً، أو على الركون إلى العزلة والانطواء جمعا وتقييدا. بل انخرط معظم الأعلام في حركية علمية تنافسية، جعلت من الترحال سبباً للتزوّد والتأثير، ومن المناقشات العلمية والمناظرات الجدلية سلاحاً للدفاع عن الأفكار والاجتهادات، وسبيلاً للمقارعة والإقناع.

كلمات مفتاحية:

الرّحلات- المناظرات-المناقشات العلميّة-المغرب الإسلامي.

Abstract:

The manifestations of cultural activity varied and had many facets in the Islamic Maghreb during the nineteenth century AD, and were no longer limited to the black pages of copying and writing, or to relying on isolation and isolation in combination and restriction. Rather, most scholars became involved in a competitive scientific movement, which made travel a reason for gain and influence, and scientific discussions and dialectical debates a weapon for defending ideas and jurisprudence, and a means for confrontation and persuasion.

Keywords:

Debates; Scientific discussions; Islamic Maghreb; Trips.

مقدمة:

تعتبر المناظرة فنّا قديما، لها جذورها في أعماق التاريخ، فلطالما آثر الإنسان عرض أفكاره على غيره وعرضها عليه، وقد عرفت المناظرة في الفلسفة اليونانية مثلا، حيث أوجد سقراط وأفلاطون وأرسطو طريقة للحوار، وترجمها العرب باسم (طوبيقا)، وهي فنّ أصيل في ثقافتنا، أرسى القرآن الكريم أركانه، وأكّد على أنّه من أرقى سبل الإقناع، وقدّم نماذج عن هذا الفنّ. (ابن منظور، 1990، 215/5).

لقد انتشرت المناظرات بين علماء المسلمين، فلم يخل عصر من ممارستها، لتزدهر وتبلغ ذروتها في عصر النهضة العربيّة والحضارية. ومن ذلك ما قدّمته الرّحلات العلميّة عامة، والرّحلات الحجازيّة بصفة خاصّة، إذ حفلت هذه الرحّلات بنصوص لمناظرات بعض الرّحالة، تمّت بين علماء المشرق وغيرهم من علماء بلاد الغرب.

- فكيف حدثت تلك المناظرات وما هي أدبيّاتها؟
- هل كان الجدال فيها ملتزما بشروط البحث والمناظرة؟
- وهل ساهمت في تقعيد قواعد مغاربيّة، مستعملة في علم البحث والمناظرة أم لا؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذه الدّراسة.

المناظرة العلمية عند المسلمين: آدابها وأركانها:

قال **ابن خلدون** (ت808هـ) في مقدمته:" كان القدامى يقيسون الأشياء بالأشباه منهما، ويناظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم، وتسليم بعضهم لبعض في ذلك" (ابن خلدون، 1978م، ص455.).

وجاء في المقدمة أيضا: " أنّه لما كثر الخلاف بين العلماء في فهم النّصوص، جرت بينهم المناظرات في تصحيح المفاهيم، وكان في تلك المناظرات، بيان مآخذ كبار العلماء واختلافهم ومواقع اجتهادهم، وبرز بذلك صنف من العلم سمّي بالخلافيات.(ابن خلدون، 1978).

وظهر في أثناء المحاورات بين المدارس العلميّة علم الجدال، الذي قال فيه **ابن خلدون**: "لما كان باب المناظرة في الرّد والقبول متّسعا، وكلّ واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب، يُرسل عِنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صوابا، ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج العلماء إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما، يقف المتناظران عند حدودها في الرّد والقبول، وكيف يكون حال المستدلّ والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاّ، وكيف يكون مخصوصا منقطعا، ومحلُّ اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السّكوت، ولخصمه الكلام والاستدلال، ولذلك قيل فيه: "إنّه معرفةٌ بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال، التي يُتوصّلُ بها إلى حفظِ رأيٍ وهدمه في كلّ العلوم" (ابن خلدون، 1978م، 452-457.).

- **المناظرة لغة:**

من خلال استقصاء المعاجم اللغويّة العربيّة، لاستجلاء المعاني التي تحيل عليها، مادّة (نظر) ومشتّقاتها، نجد أنّها تدلّ على معنى النّظر الحسّي والمعنويّ. فقد جاء في معجم العين **للخليل بن أحمد الفراهيدي**(ت170هـ): "نظر إليه ينظر نظرا... وتقول نظرت إلى كذا وكذا من نظر العين ونظر القلب» (الجرجاني، 1990م، ص 250).

وجاء في معجم لسان العرب **لابن منظور**(ت771هـ) في مادّة "نظر" ما نصّه: «النّظر: حسّ العين نظره ينظر نظرا... ومنظرا ومنظرة ونظر إليه.

والمنظر: مصدر نظر اللّيث: العرب تقول نظر ينظر نظرا .... وإذا قلت نظرت إليه لم يكن إلاّ بالعين، وإذا قلت نظرت في الأمر، احتمل أن يكون تفكرّا فيه وتدبرّا بالقلب» (ابن منظور، 1990، 5/ 215-217).

اصطلاحا:

عرف **علي بن محمد الشريف الجرجاني** (ت816هـ) في تعريفاته المناظرة بقوله:" هي النّظر بالبصيرة من الجانبين، في النّسبة بين الشّيئين إظهارا للصّواب". (الجرجاني، 1990م، ص 250) والملاحظ أنّ **الجرجاني** قد أخرج في تعريفه الاصطلاحي النّظر الحسيّ .. وقصره على النّظر المعنويّ، الذي هو من عمل العقول، فالمناظرة تكون عادة بصيغة الرّد ودحض الأدلّة، وتفنيد الحجج، وإبطال البراهين، والجدل العقليّ، والميل إلى الإقناع، أو الدّفاع عن قضّية ما، أو وجهة نظر معيّنة. (قحطان، 2009م، ص100)

ومن أفضل تعريفات المناظرة في الاصطلاح عند المتأخّرين، تعريف **محمد الأمين الشنقيطي** (ت 1325هـ)، قال رحمه الله تعالى:" المحاورة في الكلام بين شخصين مختلفين، يقصد كلّ واحد منهما تصحيح قوله، وإبطال قول الآخر، مع رغبة كلّ منهما في ظهور الحقّ...ليظهر الصّواب" (الشنقيطي، د.ت، 2/ 139).

المناظرات والمناقشات العلميّة:

المناظرات العلمية فنّ، يراد به إثبات قول أو نفيه، يجري بين اثنين أو يزيد، وهو فنّ قديم عرف خاصّة، في المناطق ذات الحركيّة العلميّة، وعند الشّعوب التي تميزّت بنشاطاتها الثقافيّة. وقد بدأت المنطقة التّواتية في بلاد المغرب مثلا، تعرف مع مطلع العصر الحديث حركة علميّة، اعتبرت عاملا في تبلور هذا الفنّ وشيوعه في أرجاء توات، يضاف إلى ذلك انتشار المذهب المالكي في القارة الافريقيّة بالخصوص، ممّا جعل المناظرات العلميّة التي مال معظمها إلى المسائل الفقهيّة، تتعدّى المنطقة الواحدة، لتشمل ربوع بلاد المغرب الإسلامي بما فيها إقليم توات، لتجسّد دورا مهّما تّمثل في إخراج العلوم من دائرة التّلقين والتلقّي، إلى دائرة النقّاش والبحث. وقد مثّلت تلك المحاورات سبيلا، للتّواصل الفكري بين علماء توات فيما بينهم من جهة، وفي مواجهة أترابهم المغاربة وغيرهم من جهة أخرى، وكانت وسيلة إلى توحيد الأفهام والاجتهادات، بيد أنّ الغرض منها لم يكن لأجل شهرة أو استعراض معارف وقدرات، بل من أجل إظهار الحقّ والرّجوع إليه، ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيي عن بيّنة، فاشتدّ الصّراع إثر ذلك بين عباقرة، من الأعلام الذين تجادلوا في سبيل العلم، قصد بيان الحقّ الشرعي وإعلاء كلمته. (باي بلعالم، د.ت، ص 80).

لقد أظهرت المناظرات والمناقشات، التي دوّنها الرّحالة بين العلماء، جوانب كثيرة من القضايا الدّينية والاجتماعيّة، التي ساهمت في إيضاح ممّيزات التّواصل الثّقافي، بين بلدان المغرب والمشرق، فإلى جانب الحلقات المنعقدة من أجل الدّراسة، كانت هناك جملة من المجالس أين يظهر فيها النّقاش الثّري، حول قضايا الأمّة عامّة، والقضايا العلمية الخاصّة.

مناظرات أبي سالم العيّاشي (ت1090هـ/1679م):

هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العيّاشي، رحّالة وفقيه مغربيّ، تنقّل عبر مدن المغرب الأقصى طلباً للعلم، فأخذ عن **عبد القادر الفاسي** (ت1091هـ/ 1680م) و**ميّارة** (ت1072هـ/ 1662م) و**ابن سودة** (ت1076هـ/1665م) و**ابن جلال** (هو أحمد بن جلال التّلمساني.) وابن القاضي (ت1082هـ/ 1672م)، وغيرهم من جلّة العلماء. جمع **العيّاشي** علما غزيرا متنوعا، يعتبر عالم عصره ونموذج المثقّف الموسوعي، فقد ألّف في الحديث وفي الفقه، وفي التصوّف وفي النّحو، وله فهرست وشعر حسن. (زمامة، 1983م، ص 156-168).

رحلته: "الرّحلة العيّاشية للبقاع الحجازيّة" المسمّى بـ "**ماء الموائد**" وهي موسوعة، حشر فيها **العيّاشي** معلومات كثيرة ومتنوعة، عن علوم العصر والعلماء. وعن الحركة الصوفيّة وعن العادات والتّقاليد. كما أطنب هذا الرّحالة، في وصف المسالك والمنازل والمدن، وحركة الرّكب إلى غير ذلك من الفوائد، التي عجّت بها هذه الرّحلة، وأصبحت فريدة من نوعها. (الحجوي، 2004، 280/2)– (كحالة، 1957، 112/6).

كانت مجالس **العيّاشي** نموذجا لفعاليّات نقاش العلماء، وبما أنّه كان قد حضر حلقات متسلسلة، لأبرز أعلام المغرب الأقصى، فقد ذكر جملة من المواضيع التي طرحت أمامه، نذكر من بينها:

- مناظرة حول مسألة الشّهادة (العياشي، 2010، 1/ 66).، كانت عند حضوره درسا للشّيخ **موسى القليبي** (-1332هـ/ 1913م)
- مناظرة في البيوع (العيّاشي، 2010، 1/ 40).
- مناقشات حول تغيير المنكر(العيّاشي، 2010، 1/ 76).
- مسألة شرب القهوة (العيّاشي، 2010، 171/1- 174).
- مسألة استعمال التبغ والتدخين. (العياشي2010م، 134/1-135).

فمن خلال رحلة **العيّاشي** نتلمّس مدى مساهمة الرّحالة، في التّواصل الثّقافي بين البلدان الإسلامية. ومن خلال جمعه لآراء العلماء في قضايا فكرية وفقهية، ظهر الاختلاف بين الخاصّة والعامّة، فمسائل التّوحيد والفلسفة الإسلاميّة، التي أولاها **العيّاشي** ما تستحقّه من البحث. دفعته إلى جمع عدد مهّم من آراء ذوي الاختصاص، للتّوضيح وإزالة اللبس (العيّاشي، 2010م، 132/2). وكانت الاختلافات في الرّأي حول هذه القضايا، متفاوتة في حدّة النقّاش وجدته. وقد يصل الحوار إلى اختلاف حاد، مثل

قضية خلق الأفعال أو مسألة الكسب التي هي من قضايا التّوحيد. فالنّقاش في هذه القضية لم يبق محليّا مغربيّا، بل أصبح إسلاميّا. شارك فيه علماء أجلاّء من بلدان العالم الإسلامي (الدّازي، 2018، ص 209-185).

ولم تقتصر المناظرات على المخالفين في العقيدة كالرّوافض، أو في المذهب الفقهيّ، بل ناظر المغاربة من هم على مذهبهم من المالكيّة، كالمناظرة التي وقعت بين **العيّاشي** وأحد مدرّسي المالكية في المسجد النّبوي، فيما يتعلّق بصرف العملات بعضها ببعض، وقد فصَّل **العيّاشي** فيها، مع أنّه لم يصرّح بسبب المناظرة (العيّاشي، 2010، 232/2).

كما دون الرّحالة المناظرة الشّعرية، التي دارت بينه وبين الشيّخ **إبراهيم السّوسي** (ت1077هـ/ 1666م)، (كحالة، 1957، 96/1). جاء فيها سؤالا منظوما **للعيّاشي** يتمثّل في: "هل يجوز للشّاعر اللحن في القوافي أم لا؟

فكان جواب **العيّاشي** بقوله: "أنّ اللحن لا يسوغ في شيء من الكلام، نظمه ونثره إلاّ أنّ النّظم لما كان أضيق من النّثر، اغتفرت فيه أشياء كثيرة لا يغتفر مثلها في النّثر ولا يسوغ، وتلك الأشياء متفاوتة، بعضها أخفّ من بعض، كقصر الممدود وعكسه، وصرف الممنوع من الصّرف وعكسه، بالنّسبة إلى التّقديم والتّأخير، والقلب في حروف الكلمة والحذف، فإنّ هذه أشدّ من الأولى.... وإنّما تخالف القافية غيرها من أجزاء البيت، في أمور ليس مرجعها اللحن، كالإسناد والإقواء وغير ذلك من عيوب القوافي، كما أنّ للأجزاء سواها عيوبا أخر، ومحلّ ذلك في العروض لا النّحو، هذا محصل الجواب (الحفناوي، 1906،ص .139-147) . فهذا سؤال عن ضرائر الشّعر وما يقع فيه، مما هو بعيد عن منهج العربية ولا يجري على قواعدها". فالملاحظ من جواب **العيّاشي** إلمامه بالشّعر، وفنونه وأنواعه وأنماطه وجهوزيّته للمناظرة أثناء رحلته.

حسين الورثيلاني (ت 1193هـ/ 1780م):

هو الحسين بن محمد **السّعيد الورثيلاني**، ولد في بني ورثيلان، اهتمّ **الورثيلاني** طوال حياته بجمع العلوم الفقهيّة، وأصول الذّكر على الطّريقة الصوفيّة الشّاذلية، وإنجاز شروحات مستفيضة عن عالم

التصوّف والمتصوّفة، كما اشتغل بالتّفسير، وكتابة القصائد، وله عدّة مؤلّفات سيما منها في الشّرح منها: "شرح الإمام سيدي يحي العيدلي"، "شرح وسطى الإمام السّنوسي" وغيرها. (الزّركلي، 1978، 281/2).

رحلته: "نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخبار" (الورثلاني، 2008م).

تعتبر الرّحلة الورثلانيّة من أبرز الرّحلات، التي شهدتها الجزائر في الفترة العثمانيّة، حيث جمعت بين التّحصيل العلميّ ومقاصد الحجّ، فهو عبارة عن سجلّ لما عاشه وشاهده، سواء تعلّق الأمر بالحجّ أو بالحياة العلميّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة للبلدان التي مرّ بها. وإنّ ما يميّز رحلة الورثيلاني، هو التزامه بالصّدق في سرد الأحداث، واعتماده على عدّة مصادر، واقتباساته المتعدّدة تثبت الأمانة العلميّة التي تميّز بها. (الورثلاني، 2008م، ص99).

مناظرات حسين الورثيلاني

لقد حضر الورثيلاني حلقات متسلسلة، لأبرز أعلام المغرب الأقصى، فقد دوّن جملة من المواضيع التي طرحت أمامه، نذكر من بينها:

مناظرات في علم الكلام:

يبدو أنّ الورثيلاني من العلماء الذين يعتبرون أنّ علم الكلام أمر مستحّب، كأداة عقليّة مكمّلة للأدلّة النّقلية، وهذا ما نلحظه في جدله مع **الشيخ العمروسي**، في مسألة مال فيها الشيخ **الورثيلاني** إلى رأي الشيخ خليل المغربي. وقد أورد في هذا السّياق عشر مسائل من علم الكلام، وهي في غاية التّعقيد بين فيها الورثيلاني، رأيه بالميل إلى الموقف العقلاني ما لم يتعارض مع الشرّع، و لا يزعجه ذلك حتى بالاستناد إلى حجّة المعتزلة. (الورثلاني، 2008م، ص361).

مناظرات في الفلسفة:

ورغم أنّ **الورثيلاني** لم ينشغل بالفلسفة، ولم يرد ذكر المصطلح نفسه، في الرّحلة بشكل صريح، إلا أنّي وجدت الكثير من المواقف الفلسفيّة الممتزجة مع الأسس الدينّية في رحلته. فقد ذكر بعد المواقف التي تعرّض إليها؛ منها أنّه أثناء زيارته أحد الشّيوخ، الذين تعلّق بهم منذ الصّغر، بقرية دلس، والملقّب بسيدي **أحمد بن عمر**، سأله بعض الفضلاء سؤالا "ذا طبيعة فلسفيّة" عن رأيه "عن قول بعض الأولياء: وقفت بساحل وقفت الأنبياء دونه.!" فاضطرّ **الورثيلاني** إلى الإجابة كتابة في نحو "كراسة صغيرة"، إذ

سعى أن يقنع الجمع الحاضر بقاعدة "أنّ المزية لا تقتضي الأفضليّة" واستدّل في ذلك بمنزلة **الخضر** مع **موسى** عليه السّلام، فاستحسن الحاضرون هذا الرّد (الورثلاني، ص 27).

المسائل الفقهية:

– تشمل القضايا الفقهية التي كانت محلّ جدل في تلك الفترة، "الغناء" أو ما يسمّى آنذاك "السّماع بالدّف." (الورثلاني، ص 235.).

–كما دّون **الورثيلاني** في رحلته، مناظراته مع العلماء الذين لقيهم في سفره، ومنها مناظرة مع والده وهي مناظرة فقهية، حول صحّة الصلاة أو عدمها، إذا ما أخلّ المصلّي بأحد أفعالها وأركانها، فيقول في ذلك: "... هذا وقد وقع بيننا وبين الوالد رحمه الله، نزاع في بعض المسائل من مسائل الفقه، فاستظهرت أنا والعلاّمة الفاضل، والمحقق الكامل عمّنا محمد"، وعلى هذا الأساس، فالمناظرة في هذا السّياق، تنقل من مجرّد النّقاش إلى الجدال والمحاججة، بهدف الإقناع وإزالة اللبس في قضيّة ما، لذا فهي تقتضي طرفين في المجادلة والمناظرة، أمام جمهور من ذوي المعرفة، فتقوم على أساسين أو اتّجاهين متعارضين حول قضية ما (البصير، 2017، ص 107)، ومن أمثلة ذلك ما ورد في رحلة الورثيلاني، عند مناظراته مع الشّيخ **علي الصّعيدي**(–1189هـ) التي ذكرها بقوله: "وقد حضرت مجلسه في الفقه، في مختصر خليل بشرح **الشيخ الخرشي أبي عبد الله المصري**(ت1101هـ) ، (الحجوي، 2010 ، 284/2)، وهو يخشى فيه... وقد باحثته في بعض المسائل الفقهيّة في مجلس إقرائه، إذ وجدته في السّهو من الشيخ **الخرشي** المذكور، فأورد على الشيخ **الخرشي** اعتراضات، غير أنه يغلط عليه ويكثر من قوله " كلام **الخرشي** فاسد، فلما سمعت ذلك، أصابتني غيرة .... " (الورثيلاني، ص 287).

وقد ترك **الورثيلاني** تأدّبا الشيخ **الصّعيدي**، رغم تحفّظه على كلامه، إلى أن انتهى ليجيبه ويحاججه بالحسنى. فيقول: فلمّا أتمّ الكلام أغلظت عليه القول، فلم يؤاخذني بذلك. بل قال: "ما "البيان" فقلت له: "المعطوف في الحقيقة محذوف تقديره كتشهّد وسّر، وقد صوّر المصنّف الشيء بضده، ولذلك قلنا المعطوف في الحقيقة محذوف كما سبق، فسلّم رضي الله عنه على يدي وقبّلها.

فالمناظرة هي فنّ قديم يضرب بجذوره في أعماق التّاريخ، وهي فنّ أصيل في ثقافتنا، أرسى القرآن الكريم أركان هذا الفن، وأكّد أنها أرقى سبل الإقناع، وقدم الورثيلاني نماذج عن هذا الفنّ (سلاّمي، د.ت، ص 45.).

محمد الخضر حسين (ت1958م):

نشأ الشيخ **محمد الخضر حسين،** في أسرة علم وأدب وتقوى، فهو عالم وفقيه لغويّ وأديب كاتب، أسهم في الحركة الفكّرية بنصيب وافر، وترك للمكتبة العربيّة زادا ثّرياً من المؤلّفات منها: "رسائل الإصلاح"، و"الخيال في الشّعر العربي"، و"أداب الحرب في الإسلام" و"تعليقات على كتاب الموافقات للشاطبي" و"الحرية في الإسلام" و"خواطر الحياة" و"تونس وجامع الزيتونة" و"ردّ على الإسلام وأصول الحكم" لعلي عبد الرازق وعددا هاما من مجلة الهداية الإسلامية التي كانت تصدر في القاهرة، وهو مؤسّسها والمسؤول عنها. جمع ابن أخيه علي الرضا التّونسي كلّ إنتاجه العلميّ في موسوعة ضخمة.

رحلته: "الرحلات" (حسين، 1976م، ص 110.).

قام الرّحالة **محمد الخضر حسين،** بالكثير من الرّحلات العلميّة إلى الشرق والغرب، ولقد دوّن مشاهداته عن بعض الرّحلات، التي قام بها إلى البلدان الأخرى، وكانت له اليد الطّولى في الإجابة عن أسئلة وجّهت إليه، في عدّة مجالات أيام رحلاته المتعدّدة، من الجزائر غربا إلى دمشق شرقا. فنجد هذا الرّحالة يقف أحيانا أثناء رحلته، ليعرض بعض المواقف، أو المسائل العارضة، كالمسائل الفقهيّة واللغويّة والقرآنيّة مثلا.

كانت لثقافة الشيخ، ومعرفته بالعلوم القرآنيّة، وتشبّعه بالثّقافة العربيّة الإسلاميّة، الأثر الكبير على كتاباته الشّخصية، والتي برزت كذلك في رحلاته المتعددة، وهذا ما نجده من خلال طرحه الكثير من المسائل الدينيّة والدنيويّة نذكر منها:

مناظرات محمد الخضر حسين:

لم يستثن الشيخ **محمد الخضر حسين** هذا الفنّ في رحلته، إذ تضمّنت بعض المناظرات منها:

- مناظرات بين الفقهاء والمحدّثين (الزنتاني ، ص 48.).

نذكر منها مناظرته حول: "هل كان النّبي ﷺ يحلق رأسه أم لا؟ وما حكم عدم الحلق؟ (حسين، 1976، ص39).

– ما تقولون في رجل اقترض مالا من عند آخر، واشترى به أشياء تجب فيها الزكاة فيما اشتراه بمال القرض، إن مرّ عليه الحول أولا تجب لأنه مدين؟ (حسين، 1976، ص40)

– العمل بقواعد الحساب في الصّوم، وإمامة الصّائم في صلاة العيد؟ (حسين، 1976، ص 45).

ومناظرات بين الأدباء:

منها القصيدة التي ألقاها **المكي بن الحسين** في فضل العلم، وممّا قاله فيها:

ومن برح الأوطان في طلب العـــلا لدى النّاظر السّامي هو الرّجل الحرّ
بني الشّعب هبّوا للمعارف إنّهـــا فخاركم الأعلى فلا الفخر عـــدم
وتلك كنوز لا من التبّر صنعـــها وهل ساد عن علم يزين الورى تبر
كذا الجهل وزر في الأنام وإن زهت معارفهم يوما فقد وضع الـــوزر

– المسائل اللغوية والنقدية والأدبية:

ونذكر منها المسائل المتعلّقة بالمفاهيم المعجميّة: مثال لفظ منطاد، الذي عرّفه الشيخ "بالآلة التي تطير في الهواء المسّماة بالبالون" (الجابري، ص 28)، ويذكر "الفيروز آبادي" أنّ "الانطياد هو الذّهابّ في الهواء صُعُدًا، وبناءٌ مُنطادٌ: مرتفع." (حسين، 1976م، ص55).

– مفهوم المدرّس، ودوره الذي يتعدّى إلقاء المسائل المتاحة له إلى التّمييز بينها، وعرضها على محكّ النقد مثل "الاستخدام في باب البيان": قال "الاستخدام إطلاق لفظ مشترك بين معنين، فتريد بذلك اللّفظ أحد المعنيين، ثم تعيد عليه ضميراً تريد به المعنى الآخر، أو أنّك تأتي بلفظ يفهم من أحدهما أحد المعنيين ومن الآخر المعنى الآخر" (حسين، 1976م، ص 63.).

محمد الأمين الشنقيطي (ت 1974م).

هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي المدني. مفسّر ومدّرس من علماء شنقيط (موريتانيا). (الزركلي: الأعلام 45/6.) ولد وتعلم بها. حجّ في سنة 1367هـ، وكانت رحلته علمية، صحبه فيها بعض تلاميذه، واستقرّ مدرساً في المسجد النّبوي، فذاع صيته في جميع أنحاء المملكة. (آل الشيخ، 1394هـ، ص 517– 520.).

رحلته: " رحلة الحجّ إلى بيت الله الحرام" (الشنقيطي)

أهميّة الرّحلة:

تعتبر "رحلة الحجّ إلى بيت الله الحرام" للشيخ **الشنقيطي** آخر رحلة حجازيّة، تدخل في نطاق بحثنا، وتميّزت هذه الرّحلة عن جميع الرّحلات بما زخرت به من مباحث غاية في الدقة، وآية في الرّوعة، واشتملت صنوفا وفنونا في ميادين علميّة شتى، فلم أقف على رحلة اهتمّت بالمسائل العلميّة، وعنيت بها أو بمجالس العلماء أجود من هذه الرّحلة، التي تطرّق فيها الشّنقيطي إلى مباحث دقيقة ومسائل فقهية رشيقة، وشرح الأحاديث النّبوية الشّريفة، وكانت مباحثه ومجالسه كلّها في المدينة المنوّرة.

مناظرات محمد الأمين الشّنقيطي:

ركّز مدّون الرّحلة على المناظرات، والمناقشات الفقهيّة والفلسفيّة والكلاميّة، وكان عددها ستّة وأربعون مناظرة ومسألة، وهذه عيّنات منها:

مناظرة حول: "حكم السّلم في الأوراق النّقديّة والفلوس والنّحاس"

سأل قاضي "قرية العيون" الشّيخ الشّنقيطي عن الكاغد المتعامل به، في نواحي البلاد التي تحت أيدي فرنسا، هل يجوز سلمه في فلوس النّحاس المتعامل بها أيضا عندهم، في مذهب الإمام مالك أم لا؟

فأجاب الشيخ قائلا: لا يجوز ذلك في مذهب مالك.

قال القاضي: أطلب منكم دليل المنع، فأجاب الشّيخ: أنّ للمدعى ثلاثة أوجه:

– الوجه الأول: أنّ فلوس النّحاس لا توجد غالبا، في الأماكن التي وقع فيها السّؤال، والمسلم فيه يشترط وجوده غالبا عند الحلول في البلد المعيّن لقبضه، أو بلد العقد إن لم يعيّن للقبض محلّ. فلقد استشهد الشّنقيطي بقول **خليل** في مختصره في عدّة شروط السّلم (المقصود به باب السّلم في مختصر خليل) ووجوده عند حلوله (الشّنقيطي، د.ت، ص 46).

– الوجه الثّاني: إنّهم لما سووا بين العين وبين فلوس النّحاس، فلا يسلّم عندهم دينار ولا درهم في فلوس نحاس، مع أنّ العين بنوعيها مباينة لفلوس النّحاس، فالنّسبة التي بين النّحاس وبين الذّهب أو الفضّة التباين، وهم ذكروا منع سلم أحدهما في الآخر، نظرا لاتحاد منفعتهما. واتحاد المنفعة عندهم موجب لمنع السلم، لأنّ الشيئين المتّحديّ المنفعة عندهم في باب السّلم، كالشّيء الواحد وإن اختلفا بالذات والحقيقة، وإن تقاربت منفعتها ولم تتحد ففيها في مذهب **مالك** خلاف (الشنقيطي، ص 50). أقول: وضّح العلماء

المعاصرون مسألة الفلوس النّحاسيّة وقيمتها، مقارنة بالورق في عدّة دراسات. (حسن، 199م، ص 180.)

– الوجه الثالث: المنع لأجل التّهمة، لأنّ أكثر النّاس في محلّ السّؤال، إذا أفتاهم بعض العلماء، بأنّ الكاغد المتعامل به لا يجوز سلم شيء منه في أكثر من جنسه، لأنّ الشيء في مثله قرض عند المالكية فيؤول إلى القرض بزيادة وهو حرام، يتحيّلون إلى سلم كاغد في كاغدين، بأن يسّموا المسلّم فيه نحاسا، ثم إذا حلّ الأجل لا يأخذون إلا نفس الكاغد ، لأنّه هو قصدهم. وتسميتهم النّحاس تحيل بالظاهر للتوصل إلى باطن حرام، والشيء إذا كثر قصد النّاس لباطنه الحرام، متوسّلين له بظاهره المباح، عند مالك. قال **خليل** في مختصره: ومنع" للتّهمة" ما كثر قصده" والحاصل أنّ الإمام **مالكا** سدّ الذريعة الوسطى" (الشنقيطي، ص 49).

وأورد محمد الأمين الشنقيطي أيضا، مناظرته التي دارت بينه وبين **أمّ الخيرات بنت أحمد الجنكية**، في "الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس"، حيث كان الجواب من الشيخ **الشّنقيطي**: أنّ الفرق بين علم الجنس واسمه، اصطدمت فيه عقول العقلاء، واختلفت فيه آراء العلماء، حتى قال بعضهم: لا يعقل الفرق بينهما في المعنى، واختار بعض المحررين من ذلك الاختلاف ما حققه ابن خاتمة (ت770هـ/1368م) من أن الفرق بينهما أمر اعتباري، وهو أن علم الجنس موضوع للحقيقة الذهنية، ليميزها عن غيرها من الحقائق الذهنية، مع قطع النظر مع وجودها في أفرادها الخارجية، ولذا كان الأول جزئيًا والثاني كليا، والجزئي الحقيق يكون علما بالإجماع، والعلم: قسمان: علم شخص وعلم جنس، ودليل حصره فيهما، أن العلم لابد أن يعين مسماه بتشخيصه إياه، فإن كان التشخيص باعتبار الخارج، فهو علم الشَّخص كزيد ومكة، وإن كان باعتبار الذهن، فهو علم الجنس كأسامة وأبي حارث للأسد (الشنقيطي، د.ت، ص39.)

يثبت جواب الشيخ **الشّنقيطي**، أنّه عارف بعلم المنطق وبالحدّ والرّسم والجنس وغيرها، وكان هذا العلم من المواد الأساسية التي تدرس في مساجد المغرب الإسلامي وبالخصوص جامع الزيتونة المعمور.

محمد بيرم الخامس (ت 1889م):

محمد بيرم الخامس بن مصطفى بن محمد بيرم الثالث (-1259هـ/ 1843م) من أصول تركية، وولد بتونس، لعائلة من علماء الدّين والفقه من جهة والده، ولعائلة أرستقراطية من أصول تركّية من الأشراف، من جهة والدته. واصل دراسته في جامع الزيتونة أين تّعلم القرآن والتفسير والحديث. كانت له ميول سياسيّة وأدبية أكثر منها فقهيّة وعلميّة، وكان رحّالة ومؤرّخا وصحفيا وإصلاحيا، (الزمرلي، 1986م، ص87)، (ابن عاشور، ص 34).

رحلته: "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" (بيرم الخامس، 1886م)

تتميّز هذه الرّحلة بتخطيط عام، فيه أبواب وفصول مدّققة، وهي تختلف من حيث المعلومات والأسلوب عن سائر الرّحلات، فبيرم التونسي أفرد بابا خاصّا يذكر فيه سبب سفره، الذي كان أساسه "السّفر للتداوي، فبيّن المرض الذي حمله على السّفر، وما قيل في التّداوي شرعا، وما هي الطّرق التي عولج بها.

مناظرات محمد بيرم الخامس:

لعلّ مرض الشيخ محمد بيرم الخامس هو الذي دفعه إلى أن يكتب في عدّة مسائل فقهية، وما قيل في التداوي شرعا وما هي الطرق التي عولج بها. فنجده يذكر مناظرته التي دارت بينه وبين طبيبه في حكم شرب الذهب.

فأجاب قائلا لطبيبه: "إنّ أكل الذهب للتقوي معلوم عندنا، وقد كان الإمام ابن عرفة (803هـ / 1400م)، يبرّد كل يوم بندقيا (البندقي نوع من سكّة الذّهب، منسوب إلى البندقيّة وزنه نحو دينار) على دجاجة ويطبخها جيدا ويأكلها.

فقال الحكيم: البندقي كثير، فقلت: له حيث إنّ الذهب غير مخلول، فلا يأخذ منه البدن إلا مقدار ما تهضمه المعدة، وما عداه يذهب في الفضلة، فقال الحكيم نعم (بيرم: 1303هـ، 1/ 109).

خاتمة:

إن الاطلاع على كتب الرحلة في القرن التّاسع عشر ميلادي ودراسة ما حوته من مناظرات ومناقشات علمية كشفا عن دورها في إثراء الحياة الثقافية إذ تعتبر المجالس والمناظرات العلمية من أهم المظاهر الإيجابية التي ساهمت في إثراء الحركة الفكرية، وساعدت على امتزاج عناصر المجتمع، وذلك باحتكاك الفقهاء المشارقة بالمغاربة، وأدباء ذلك العصر وشعرائه من الشرق والغرب أيضا، وامتد تأثيرها إلى

معالم الحياة كلها، بما فيها الحياة الاجتماعية والاقتصادية لتنوع موضوعاتها وثرائها، ولاتساع دائرة المناقشات حول مسائل مختلفة في حياة الأمّة.

إن المتأمّل في نصوص هذه المحاورات بين العلماء، يلمح مدى حرصهم على التقيد بآداب المناظرة، ومدى تواضع بعضهم لبعض، رغم ما كان – في الوقت نفسه – من حرصهم على إفحام المناظر وإقناعه بالحجة والدليل، ومما يحسن ذكره أيضا من الآداب: مخاطبة الآخر، احترام الطرف الآخر، وانتقاء الألفاظ الحسنة في وصفه، وعبارات حسن الحوار كثيرة، لعل أبرزها اصطحاب تسمية الطرف النظير بعبارات التقدير والدعاء القصير والاعتراف بعلمه وفضله، وهذا كلّه نابع من يقينهم أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد اختلاف في الأفهام بخصوص ما تعلق بالفقه منها فالبعض كان حريصا على النظر في أصول المسائل، بينما حرص البعض الآخر على النظر في خصوصيات النوازل.

وخلاصة ما تقدم أن للرحلات والمناظرات العلمية، أثر على الحياة الثقافية، فقد طورت من مناهج وأساليب الدراسة، ووسعت من علاقات العلماء بأعلام الحواضر الأخرى وأمدت بكم هائل من نفائس أمهات وذخائر الكتب، ووصلت علومهم بأسانيد ومرجعيات راسخة عن ثقات الأمة ورجالها.

أظهرت الحوارات والمناقشات بين العلماء، جوانب كثيرة من القضايا الدينيّة والاجتماعية، التي ساهمت في إيضاح مميّزات التّواصل الثّقافي بين بلدان المغرب والمشرق، فإلى جانب الحلقات المنعقدة من أجل الدّراسة، كانت هناك جملة من المجالس أين يظهر فيها النقاش الثريّ حول قضايا الأمّة عامة، والقضايا العلميّة الخاصّة.

قائمة المصادر والمراجع

1- آل الشيخ، عبد الرحمن بن عبد الله. (1394هـ). مشاهير علماء نجد. دار اليمامة.

2- ابن منظور، أبو الفضل. (1990). لسان العرب، ط.1 دار صادر، بيروت.

3- ابن خلدون، عبد الرحمن. (1978). المقدمة، دار القلم، بيروت.

4_ ابن عاشور، محمد الفاضل. (1309هـ). أركان النّهضة الأدبيّة في تونس.مطبعة النجاح.تونس.

5 _ بوذينة، محمد (1988م). مشاهير التونسيّين. المطابع الموحدة، تونس.

6- تيمور، أحمد. (1967م). أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث. القاهرة .

7- الجرجاني، علي بن محمد الشريف. (1990م). التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت.

8- حسن، أحمد. (1999). الأوراق النقديّة في الاقتصاد الإسلامي: قيمتها وأحكامها. دار الفكر المعاصر. بيروت.

9- حسين، محمد الخضر. (1976). الرّحلات. المطبعة التعاونيّة. تونس.

10- الحفناوي، أبو القاسم محمد. (1906). تعريف الخلف برجال السّلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر.

11- الخامس، محمد بيرم . (1886). صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار. دار صادر، بيروت.

12- الزّركلي، محي الدين. (1978). الأعلام: قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء في العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت.

13_ الزمرلي، الصادق. (1986). أعلام تونسيون. دار الغرب الإسلامي. بيروت.

14- السنوسي، زين العابدين. (1962). محمد بيرم الخامس. تونس.

15- الشنقيطي، محمد الأمين. (د.ت). آداب البحث والمناظرة، عار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرّمة.

16- الشنقيطي، محمد الأمين. (د.ت). رحلة الحج إلى بيت الله الحرام. دار ابن تيمية للطباعة والنشر. القاهرة.

17- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن. (د.ت) الخليل معجم العين، دار الرشيّد للنشّر.

18_ محفوظ، محمد. (1982). تراجم المؤلفين التونسيين. دار الغرب الإسلامي. تونس.

19- محمد، باي بلعالم. (د.ت). الغصن الداني في ترجمة عبد الرحمن بن عمر التنيلاني، دار هومة، الجزائر.

20- مواعدة، محمد. (1974م). محمد الخضر حسين حياته وآثاره، ط. تونس..

21- الورثلاني، الحسين بن محمد.(2008). الرّحلة الورثلانية، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ط.1. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

22- قحطان، صالح الفلاح. (شعبان 1430هـ- أوت، 2009م) "مدخل إلى الحوار والمناظرة"، مجلّة ثقافيّة شهريّة، وزارة الثّقافة، الجمهورية العربية السوريّة، العدد551.
23- صحراوي، عبد القادر . (د.ت) "الورثلاني: مقدمة عن رحلته وملاحظات عن فضل علم التاريخ والأخبار"، مجلة الحوار المتوسطي الجزائر. (العددان 9و10).
24- البصير، سعاد. (2017). "التّفاعل الثّقافي والعلميّ بين الرّحالة الجزائريّين ونظرائهم، من بلاد المشرق، خلال العهد العثماني". مجلة قضايا تاريخية. الجزائر . (العدد 8).
25- الدّازي، حفيظة. (2018). "الرّحلة الحجازيّة جسر للتّواصل الثّقافي: رحلة ماء الموائد" لعبد الله العيّاشي أنموذجا". مجلة بصمات. (8).
26- زمامة، عبد القادر. (1984). "مع أبي سالم العياشي في رحلته إلى المشرق". مجلّة المناهل، (30).